رواية "العشاق" لرشاد أبي شاور

بقلم صالح هواري

عن دائرة الاعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية ، صدرت للكاتب الفلسطيني رشاد أبي شاور رواية جديدة بعنوان « العشاق » وتقع في مائتين وسبعين صفحة من القطع المتوسط .

المناخ العام للرواية :

يجسد رشاد في روايته الجديدة العشق الفلسطيني للارض ، ويعلن ان الارادة الفلسطينية زيتونة تنبت وسط غابة من الرماح يحرسها وعي نضالي مضيء .

في بداية الرواية يقوم الكاتب بعمل تسجيلي تاريخي لمدينة أريحا ، الساحة التي تجري عليها أحداث الرواية ، وبعد أن يصف المخيمات الفلسطينية في المنطقة يكشف لنا عن حال المقاومة في بداية تشكلها قبل حرب عام ١٩٦٧ ، والظروف العربية التي تحيق بها . وفي الفصل الثاني يرصد ما حدث في مدينة أريحا وذلك من خلال تسليطه الاضواء على بعض الاسر الفلسطينية في مخيمات : عين السلطان ، والنويعمه ، وعقبة جبر والتي كان لها علاقة وطيدة بحركة المقاومة . في الرواية يقبض رشاد على الاسباب التي أدت الى صنع النكسة واعاقة تيار المقاومة عن اندفاعه النضالي .

تأخذ الحبكة مسارها الدينامي ضمن العلاقة القائمة بين اسرتي : أم محمود وأم حسن ، محمود (بطل الرواية) معلم في مدارس غوث اللاجئين ومنظم في المقاومة ، يعيش مع أمه وأخيه محمد الفنان المتحمس الذي لا يغني الا لفلسطين :

مهما يطول الليل لا بد من آخر

اما حسن فهو صديق محمود في التنظيم ، وأمه امراة عاملة تصنع الطوب لبناء بيوت جديدة بدل الخيام، وندى هي حبيبة محمود ، والدها ابو خليل بائع الشاي تحت الشجرة . وهناك شخصيات اخرى ثانوية كشخصية الشيخ ابي نعمان حارس مخازن المؤن في المخيم ، ذبح اليهود زوجته وأولاده في قرية ذكرين ، وبعد هزيمة حزيران يبقى في المخيم يرفع الآذان في المسجد الى أن يقتله اليهود وهو على المئذنة .

والاب الياس وهو صديق عائلة أم محمود والمنتمي الى حزب المسيح : (أنا مع حزب المسيح ، والفقراء والمضطهدون هم حزبه ، لذا أنا معكم) .

بعد انتهاء الحرب بهزيمة العرب يبدأ وعي الفلسطيني يتبلور على صخرة المرحلة ويتجسد نضالا فاعلا ، وكان من مظاهر هذا التبلور التخطيط لابادة الدوريات الاسرائيلية التي دخلت المخيمات ثم التنفيذ الفوري ...

اللغة :

هل استطاع رشاد ابو شاور في روايته هذه ان يجسد حلمه الفلسطيني بلغة روائية متماسكة ؟ اذا كان المقصود بالتماسك النسيج الدرامي الحواري فانني أقول: ان الكاتب استطاع فعلا أن يقبض على الظلال الهاربة وراء الكلمة ويشحنها بطاقات تعبيرية كامنة ، تبدو غافلة لكنها واعية ، ولئن بدت اللغة قريبة من لغة الحديث العادي ، الا انها لغة متفجرة بعطاءات نفسية ذاهلة ، تقدم لنا نفسها بنفسها دون تورية أو ايماء أو لولبية وذلك لما تختزنه من رصيد وجداني حاد :

(يظنون ان باستطاعتهم كشطنا عن أرضنا ؛ ونحن لسنا هذه البيوت الطينية التي يسهل هدمها . نحن التراب ، فكلما كشطرا طبقة واجهوا طبقة أخرى) .

أما اذا كان المقصود بالتماسك اللغوي هو ذلك البناء النحوي التركيبي الصياغي فأستطيع أن أقول ان بعض العبارات في الرواية تفتقر الى الصياغة المتأنقة ، ذلك لان الكاتب كما يبدو لم يتح لعمله الفني الشكلي فرصة التريث لاختمار لغوي أكثر نضوجا . وهذا عائد الى شدة اخلاصه في افراغ هواجسه بلغة بكر كما خلقتها اللحظة الشعورية الصافية ، فجاءت بعيدة عن الابّهة الزائفة والتنميق المتكلف والترف العابث . تشعر وانت تقرأ مثل هذه العبارات الحوارية بالالتصاق الحميمي بلحم الواقع عاريا عن كل بهرجة وتجنيح ، واعتقد ان هذه الرواية لو كتبت بلغة غير هذه اللغة لافتقرت الى عنصر التأثير والاذهال ، لان للغة احيانا كهربتها الآسرة ، وهذا ما استطاع أن يوفره لنا رشاد من خلال تعامله الصادق مع الكلمات الشعبيةالفلسطينية (دفرته في كتفه ... فم مزموم متكرمش) . يقول في موقف دخول (ندى) حبيبة محمود الى بيت أم محمود للاطمئنان عن بقائهم في المخيم بعد رحيل معظم العائلات :

(... مدّ محمود يده وشدّ على يدها ، ثم سحبها من يدها . قدم محمد لها كرسيا ؛ قالت : جئت لأتأكد من انكم لم ترحلوا .

رفعت الام اصبعيها الشاهدين ، ادارت وجهها الى الله : السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله) .

ويبدو ان رشاد لم يكتب الرواية بهذه اللغة السهلة الممتنعة لعجز منه عن كتابة العبارات المتماسكة لغويا والمصنوعة صناعة اعتقادا منه ان مثل هذه العبارات يمكن أن تسيء الى عمله الروائي بانشائيتها ذات الابهة الفارغة ، هناك عبارات في الرواية على الرغم من كونها وصفية الا ان الكاتب برع في تأليفها وشحنها فبدت كأنها واحة على طريق الاحداث يتظلل بها القارىء ، وهذا ان دلّ على شيء فانما يدل على محاولة رشاد اثبات قدرته على التعامل مع البناء اللغوي دون كلفة . هل هناك اجمل من هذه العبارات الشاعرية الموحية في قوله على لسان محمود لندى عبر مونولوج داخلي صامت : (... قلبي شجرة موز ، وشجرة الموز تحتاج لماء كثير كي تعيش ، فهاتي ماءك ، وتعالي نركض في البساتين تحت قمر اريحا ، نغتسل برذاذ القمر) .

لغة جميلة ، موحية ، وموظفة توظيفا انسانيا ووطنيا ...

رائحة الارض :

مما ينسب الى (غوستاف فلوبير) قوله : انه شعر بطعم السم في فمه وهو يصف انتحار مدام بوفاري . ومما ينسب أيضا الى (بلزاك) قوله عن نفسه وهو يصف موقعة حربية ان تحركات الجند كانت تجري أمام عينيه ، وطلقات المدافع تدوّي في اذنيه ، ورائحة البارود تزكم أنفه . واكاد أسمع من رشاد قوله : انه شعر بنكهة الارض تعطر شرايينه ، وتمتزج بدمه ، وهو يكتب هذه الرواية الرائعة :

(هذه الرائحة يا أب الياس أقوى من كل شيء ، انني رغم كل شيء ما زلت أتذكر رائحة تفاح بستاننا ؛ ورائحة المطر اذ يمتزج بالتراب ..) .

الصورة البنائية الروائية :

الرواية من حيث بناؤها تنتظمها خيوط ملحمية متوهجة عبر شبكة الاحداث ، اكثر منها خيوط عضوية، ذلك لان الكاتب يقدم فيها أحداثا متشابكة ولكنها مركزة واضحة تنبع من واقع تاريخي لشعب كابد شتى أنواع التشريد والحصار . ان الفصلين اللذين تتشكل منهما الرواية قبل الحرب وبعدها يمكن أن يكونا اكثر اتساعا للعديد من الاحداث الجانبية الاخرى وربطها بشبكة الحدث الرئيسي ما دامت جميعها ستؤدي في النهاية الى طريق المعنى العام للرواية وهو تبلور العمل الفدائي وترجمته الى فعل، واعتقد ان معظم الروايات الفلسطينية والعربية التي كتبت في مثل هذا المعنى هي روايات تقوم على ملحمية تكتسي قميصا تاريخيا صارخ اللون ، لون الفعل الذي يحاور حلم البطل ويحيله الى رمز . فقيام حسن وأبي سمير وابي جمال بابادة الدورية الاسرائيلية التي ترابط في المخيم هو حلم قبل أن يصبح فعلا ، فقد كان يهجس به حسن ورفاقه بعد اغتيال الشيخ ابي نعمان ، الى أن تجسد واقعا وممارسة وتنفيذا ..

يؤكد رشاد الى جانب الفكرة النضالية فكرة اخرى نبعت من طبيعة وواقع شخوص الرواية ، انها فكرة الاشتراكية بأجلى مظاهرها ، ويبدو ذلك من خلال تفجيره لحركة المقاومة من بين صفوف الطبقة الفلسطينية الفقيرة الكادحة : فمحمود بطل الرواية معلم أطفال ، واخوه محمد يعمل في مقهى شعبي ، وأم حسن امرأة كادحة تصنع الطوب لبناء بيوت في المخيم ، وابو خليل والد (ندى) يبيع الشاي تحت الشجرة في احدى البيارات ، وعطوه : شرطي فلسطيني يعمل في المقاومة، والشيخ ابو نعمان حارس مخازن الطحين في المخيم . وطبيعي أن يلتحم كل هؤلاء بلحم القضية ويعملوا من اجل حياة أفضل هي غاية ما تصبو اليه الاشتراكية . ومن الدلائل الاخرى على اثبات الفكرة الاشتراكية نظرة الكاتب المتفائلة وقدرة شعبه على تجاوز المضيق الصعب الذي تمرّ به السفينة الفلسطينية : (رفع أبو خليل راسه فرأى قطوف البلح تتدلى من قمم أشجار النخيل،

القطوف خضراء محمرّة ، لم تنضج بعد ، ولكنها في وقت غير بعيد ستنضج وتمتلىء بالحلاوة) .

كذلك طموح الكاتب الى تصوير انبثاق الفد الفلسطيني من أسوار الظلام : (ان أضواء القنابل ستحيل الليل الى نهار) .

ولعلّ أهم الامور التي تطرّق اليها رشاد في « العشاق » محاولته ادخال شخصية روائية يهودية (الخواجة داود) الذي كان يتردد الى خمارة ابي ميخائيل . والى مكان العم أبي خليل بائع الشاي ليتسقط أخبار شباب المخيمات ، حيث يدّعي انه عالم آثار يشرف على حفر تلة مجاورة لاريحا ليبحث عن شيء يثبت حق اليهود في فلسطين : « هم يبحثون عن ما يثبت حقهم في أرضنا ، انهم يغوصون في الحفريات ، ولكن كل الجذور وطبقات العظام والتراب والصخور تؤكد اننا نحن أصحاب هذه الارض ... هم يا أبو خليل يبحثون عن الماضي ونحن نصنع المستقبل » .

هذا .. ولم يكن رشاد السابق الى تقديم شخصية يهودي في روايته ، بل لقد كان لغسان كنفاني الدور الريادي في ذلك حين قدّم في « عائد الى حيفا » رجلا وامرأة من المهاجرين الاوروبيين هما (كوشن وزوجته ميرام) البولندية الاصل ، هربا من ملاحقة النازيين وغرر بهما حلم الاستيطان في أرض ليست أرضهما . لقد ذبح النازيون أخا (ميرام) فرأت في الطفل الفلسطيني الذي قتلته العصابات الصهيونية صورة مقابلة لاخيها فقررت العودة الى أوروبا .

لقد صوّر لنا رشاد العالم الداخلي لشخصية (الخواجه داود) المنطوية على حلم صهيوني بحق اليهود في فلسطين ومحاولته تجسيد هذا الهاجس عن طريق البحث عن آثار يهودية قرب أريحا تثبت حقهم في الارض الفلسطينية . وكذلك فان حديثه مع أبي خليل بائع الشاي يثبت هذه النية السوداء لدى هذا اليهودي الدخيل :

(اليوم جاء هذا الكلب : الخواجه داود ، أخذ يحدثني عن الآثار وقبائل عبرية مرت بأريحا ، وقتال قديم وأشياء لا أعرفها . تصوّر انه قال لي : اريحا مدينتنا منذ آلاف السنين) .

أما غسان فلم يتطرق الى تصوير الجو النفسي لشخصيتي (كوشن وميرام) بل اكتفى برسم علاقة الاضطهاد بين الفلسطيني المشرد واليهودي المطارد .

هذا .. وأستطيع أن أقول أخيرا : ان رشاد في روايته الجديدة « العشاق » استطاع أن يقنعنا بتميز صوته الروائي هذا راسما لنا رؤيته الفلسطينية الواضحة من خلال ممارسته الفعلية للنضال عبر مسيرة الثورة الفعلية التي تألق فيها كاتبا ومناضلا .

صالح هواري

دار الآداب تقدم :

شوقي بزيع

في مجموعته الشعرية الاولى

عناوين سريعة لوطن مقتول

صوت من أصوات لبنان الجنوبي

يتفرد بنبرة شاعرية استلفتت

انظار النقاد والدارسين

صدر حديثا

صدر حديثا :

الارض تنشر أسرارها

للشاعر مريد البرغوثي

●

منشورات دار الآداب